سورة الكهف[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ ﴾

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد ، وبدأ سورة الكهف بالحمد ، والحمد لله دائماً هو الشعار الذى أطلقه رسول الله ﷺ فى خير الكلمات : « سبحان الله والحمد لله » سبحان الله بُدئتْ بها سورة الإسراء ، والحمد لله بُدئت بها سورة الكهف . سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك ، لا فى الذات ، ولا فى الأفعال ، ولا فى الصفات ، والحمد لله كذلك تكبرة للذات ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا : الحمد لله . فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شكر على العطاء .

والحمد يشترك معه فى المعنى العام : ثناء وشُكْر ومدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربت فى المعنى العام فلكُلٍّ منها معناه الخاص ،

---

(١) سورة الكهف هى السورة رقم (١٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ١١٠ آية وتقع فى الجزء الخامس عشر والسادس عشر من المصحف . وهى سورة مكية فى قول جميع المفسرين . قال القرطبى-فى تفسيره : « وروى عن فرقة أن أول السورة نزلت بالمدينة إلى قوله ﴿ جُرُزًا ﴾ والأول أصح » .

وقد رُوى فى فضل سورة الكهف أحاديث كثيرة منها :

– من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه . قال النووى فى شرحه لمسلم : « وفى رواية « من آخر الكهف » قيل : سبب ذلك ما فى أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال وكذا فى آخرها » .

وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأن يُسدى لك إنسان جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه .

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقْعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح ما لا يعطيك شيئاً ، كأن تمدح مثلاً الشكل الجميل لمجرد أنه أعجبك .

فقَوْلُ الحق : (الحمد لله) بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكل شيء ، حتى إنَّ حمدك لأىِّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو - إذا سَلْسلْتَهُ - حَمْدٌ لله تعالى الذى أعان هذا الإنسان على أن يحسن إليك ، فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التى أمدَّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلتَ الحمد لأىِّ إنسان فى الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة (الحَمْدُ للَّهِ) هذه هى الصيغة التى علمنا الله أنْ نحمدَهُ بها ، وإلا فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلف الخَلْق فى الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيى والأمّى . فتحمَّل الله عنا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكل يقول (الحمد لله) البليغ يقولها ، والعيى يقولها ، والأمّى يقولها .

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويُثنِى عليه : « سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك » .

فإنْ أردنا أنْ نُحصى الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقولَ ما علَّمتنا من حمدك : الحمد لله .

إذن : فاستواء الناس جميعاً فى الحمد لله نعمة كبرى فى ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما علّمنا من الحمد لله ، والحمْد الأول أيضاً نعمة ، وبذلك نقول : الحمد لله على ما علّمنا من الحمد لله بالحمد لله .

وهكذا ، لو تتبعتَ الحمدَ لوجدته سلسلةً لا تنتهى ، حَمْد على حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل الله محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

والحمد لله استهل بها الحق سبحانه خَمْس سور من القرآن :

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② ﴾ [الفاتحة]

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ① ﴾ [الأنعام]

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ① ﴾ [الكهف]

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الآخِرَةِ .. ① ﴾ [سبأ]

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ .. ① ﴾ [فاطر]

ولكن ، لكُلِّ حَمْد فى كل سورة حيثية خاصة ، فالحمد فى الأولى

لأن الله ربُّ العالمين ، وربٌّ يعنى الخالق والمتولى للتربية ، خلق من عدم ، وأمدَّ من عُدم ، وتولَّى تربية عباده ، فهو رَبٌّ لكل العالمين ؛ لذلك يجب أنْ نحمدَ الله على أنه هو الربُّ الذى خلق العالمين ، وأمدَّهم بفضله .

وفى الثانية : نحمده سبحانه الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وهذه آيات من آيات الله ونِعَم من نعَمه ، فالسماوات والأرض فيها قيام البشر كله بما يمدُّ حَياتهم بالقوت ، ويستبقى نوعهم بالتكاثر .

والظلمات والنور منَ نعم الله ، وهما متكاملان لا متضادان ، فللظُّلمة مهمة ، كما أن للنور مهمة ، الظلمة للسكون والراحة ، والنور للسعى والحركة ، ولا يمكن لسَاعٍ أنْ يسعى ويجدّ فى عمل ، إلا إذا ارتاح وسكن وجدَّد نشاطه ، فتقابُل الظلمة والنور للتكامل ، فالحياة لا تستقيم فى ظلام دائم ، كما أنها لا تستقيم فى نور دائم .

وفى السورة الثالثة من السور التى افتتحها الحق سبحانه بـ (الحَمْدُ لله) - والتى نحن بصددها - أراد الحق سبحانه أنْ يُوضّح أنه لم يُربِّ الخلْق تربية مادية فقط ، بل هناك تربية أعلى من المادة تربية روحية قيمية ، فذكر هنا الحيثية الحقيقية لخلْق الإنسان ، فهو لم يُخلق لمادته فحسْب ، ولكن لرسالة أسمى ، خلق ليعرف القيم والرب والدين ، وأنْ يعملَ لحياة أخرى غير هذه الحياة المادية ، فقال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. (١) ﴾ [الكهف]

فحيثية الحمد هنا إنزالُ الكتاب الذى يجمع كل القيم . وقلنا : إن

الحق سبحانه محمود برحمانيته قبل أنْ يخلق الخَلْق وضع له النماذج التى تُصلح حركة الحياة ، كما قال تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن]

فتعليم القرآن جاء قبل خَلْق الإنسان ، إذن : وضع الحق سبحانه لعباده المنهج المنظِّم لحياتهم قبل أن يخلقَهم ، لعلْمه سبحانه بطبيعة خَلْقه ، وبما يصلحهم ، كالمخترع للآلة الذى يعلم مهمتها ويُحدد قانون صيانتها ، فالكتاب الذى نزل على محمد ﷺ هو المهمة الأساسية ، فيجب أنْ تُوطِّن عليها نفسك ، وتعلَم أنه المنظِّم لحياتك ، وبه قانون صيانتك .

وقوله : ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ ..۝١﴾ [الكهف] كما قلنا : فى سورة الإسراء : إن العبودية كانت حيثية الرِّفْعة فى الإسراء والمعراج ، فقال سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..۝١﴾ [الإسراء]

فالعبودية رفعتْه إلى حضرته تعالى ؛ لأنه كان عبداً بحقٍّ ، وهذا يعنى إنزال الكتاب عليه ، فكان عبداً بحق قبل أن يُسرَى به ، وحمل منهج الله أولاً فالتفتَ لربه لَفْتةً أراد أنْ يلفتَ بها سواه ، فأخلص هو أولاً فى العبودية ، وتحمَّل ما تحمَّل ، فكان من جزائه أن يرتفع إلى مقام الحضرة فَعُرِج به ، وهناك أعطاه الله الصلاة لينزلَ بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذى سعى إليه بالمعراج .

إذن : فالنبى تناول ليناول ، وتناول لأنه أخلصَ العبودية ، فصعد إلى حضرة ربه ، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه ، وكأنه يقول لهم : مَنْ أراد أن يلتقى بالله ، فليدخل فى الصلاة .

و ﴿الْكِتَابَ ①﴾ [الكهف] هو القرآن الكريم ، لكن سورة الكهف ترتيبها الثامنة عشرة بين سور المصحف من المائة والأربعة عشرة سورة ، أى : أن القرآن لم يكتمل بعد ، فلماذا قال تعالى (الكتاب) وهو لم يكتمل بعد ؟

نقول : الكتاب يُطلَق ويُرَادُ به بعضه ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ⑱﴾ [القيامة] فالآية الواحدة تُسمَّى قرآناً ، والسورة تُسمَّى قرآناً ، والكل نُسمِّيه قرآناً .

أو : يكون المراد أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، ثم نزَّله بعد ذلك مُنَجَّماً حَسْب الوقائع ، فالمراد هنا الإنزال لا التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ①﴾ [الكهف] أى : جعله مستقيماً ، لا عوجَ فيه ، كما قال فى آية أخرى : ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ..㉘﴾ [الزمر] والاعوجاج . أن يأخذ الشىءُ امتداداً مُنْحنياً ملتوياً ، أما الاستقامة فهى الامتداد فى نفس الاتجاه ، لا يميل يميناً أو شمالاً ، ومعلوم أن الخطَّ المستقيم يمثل أقرب مسافة بين نقطتين ، ولا تستقيم حياة الناس فى الدنيا إلا إذا ساروا جميعاً على منهج مستقيم يعصمهم من التصادم فى حركة الحياة .

فالحق سبحانه وتعالى خلق الخَلْق متكاملين ، فكُلٌّ منهم لديه موهبة يحتاجها الآخرون ، فهذا طبيب ، وهذا مهندس ، وهذا نجار ، وهذا خياط ، ولا يستطيع أحد أن يقومَ بذاته أو يستغنى عن مواهب غيره ، فلا بُدَّ أن يتواجه الناس فى الحياة ، وأنْ يتكاملوا .

هذا التواجه إنْ لم يُنظَّم وتوضع له قوانين مرور دقيقة لتصادمت حركات الناس ، كما يحدث على الطريق الملتوى كثير المنحنيات ، فالقادم من هنا لا يرى القادم من هناك ، فيحدث التصادم . إذن : لا بُدَّ من استقامة الطريق ليرى كلٌّ مِنّا الآخر ، فلا يصطدم به . والمنهج الإلهى هو الطريق المستقيم الذى يضمن سلامة الحركة فى الحياة .

وقد ذُكر الاعوجاج أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا[1] (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا[2] (١٠٧) ﴾ [طه]

أى : أرضاً مستوية خالية من أى شيء ﴿ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا (١٠٧) ﴾ [طه] أى : مستقيمة ﴿ وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه]

أى : مُستوية لا يُوجد بها مرتفعات ومنخفضات تعوق الرؤية أيضاً وتسبب التصادم ، وهذا ما يُسمِّيه رجال المرور (العقبة) .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً القرآن الكريم :

﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) ﴾

قوله : (قَيِّماً) أى : القرآن ، وقالوا : قيِّم يعنى مستقيم ، كأنها

(١) الصفصف : الأرض الملساء المستوية ، أى : أن الجبال تزول فلا يكون لها أثر . [القاموس القويم ١/٣٧٩]

(٢) الأمْت : التلال الصغار . والأمت : الوهدة بين كل نشزين . وفي التنزيل العزيز : ﴿ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) ﴾ [طه] أى : لا انخفاض فيها ولا ارتفاع . [لسان العرب مادة : أمت] .

تأكيد لقوله : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ①﴾ [الكهف] لأن الاستقامة والعوَج قد لا يُدرك بالعين المجردة وتحتاج إلى ميزان دقيق يكشف لك مدى العوَج أو الاستقامة ، وهذه الظاهرة تراها في الطرق المستوية المرصوفة ، والتي تراها للوَهْلة الأولى مستقيمة تماماً ومستوية ، فإذا مَا نزل المطر فضح هذا الاستواء وأظهر ما فيه من عيوب ؛ لذلك أكّد الاستقامة بقوله ﴿قَيِّمًا ②﴾ [الكهف]

ومن معاني القَيِّم : المهيمن على ما دونه ، كما تقول : فلان قَيِّم على فلان أي : مُهيمن عليه وقائم على أمره . فالقرآن - إذن - لا عوَج فيه ، وهو أيضاً مُهيمن على الكتب السابقة وله الوصاية عليها كما قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ㊽﴾ [المائدة]

ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ㊸﴾ [الروم] أي : المهيمن على الأديان السابقة .

ثم يقول تعالى : ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ②﴾ [الكهف]

وهذه هي العِلّة في الإنزال .

والإنذار : التخويف بشَرٍّ قادم ، والمنْذَر هنا هم الكفار ؛ لأنه لا يُنْذَر بالعذاب الشديد إلا الكفار ، لكن سياق الآية لم يذكرها ليترك مجالاً للملَكة العربية وللذِّهْن أنْ يعملَ ، وأنْ يستقبلَ القرآن بفكر مُتفتح وعقل يستنبط ، وليس بالضرورة أن يعطينا القرآنُ كلّ شيء هكذا على طرف الثُّمام أي قريباً سهل التناول .

ثم ضَخّم العذاب بأنه شديد ، ليس ذلك وفقط بل ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ ،

والعذاب يتناسب مع المعذَّب وقوته ، فإنْ كان العذاب من الله فلا طاقة لأحد به ، ولا مهربَ لأحد منه .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ .. ②﴾ [الكهف] والبشارة تكون بالخير المنتظر في المستقبل ، ونلاحظ أنه في البشارة ذكر المبشَّر (المؤمنين) ولم يسكت عنهم كما سكت عن الكفار في الإنذار ، فهذا من رحمة الله بنا حتى في الأسلوب ، والبشارة هنا بالأجر الحسن ؛ لأنه أجر من الكريم المتفضّل سبحانه ؛ لذلك قال الحق سبحانه بعدها :

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ③﴾

أى : باقين فيه بقاءً أبدياً ، وكان لابُدَّ أنْ يُوصَف أجر الله الحسن بأنه دائم ، وأنهم ماكثون فيه أبداً ؛ لأن هناك فرقاً بين أجر الناس للناس في الدنيا ، وأجر المتعم سبحانه في الآخرة . لقد ألِفَ الناس الأجر على أنه جُعل على عمل ، فعلى قَدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإنْ لم تعمل فلا أجرَ لك .

أما أجْر الله لعباده في الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإنْ ظلمك الناس في تقدير أجرك في الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم يعطيك بسخاء ؛ لأنه المنصف المتفضّل ، وإنِ انقطع الأجر في الدنيا فإنه دائم في الآخرة ؛ لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيم زائل ، إما أنْ تتركه ، وإما أنْ يتركك .

ثم يقول الحق سبحانه :



والإنذار هنا غير الإنذار الأول ، لقد كرّر الإنذار ليكون خاصاً بقمة المعاصى ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الأول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثانى فهو لإعادة الخاص مع العام ، كأن لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية فى قوله : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا[1] إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَـٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم]

إنها قمة المعاصى أنْ نخوضَ فى ذات الله تعالى بمقولة تتفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتنهدّ لهوْلها الجبال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾

فهذه القضية التى ادَّعَوْها ، وهذه المقولة التى كذبوها على الله ، من أين أتَوْا بها ؟ الحقيقة أنهم ادعَوْهَا ولا علمَ لهم بها ، والعلم إما ذاتى ، وإما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ .. (٥)﴾ [الكهف]

---

(١) الإد : الداهية والأمر الفظيع والكذب الفاحش ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)﴾ [مريم] . أى : منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١/١٢] .

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيءَ موجود وأنت لا تعلم به ؛ لأنه مستور عنك ، وإما لأن الشيء لا وجودَ له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود ؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .

وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ⑤ ﴾ [الكهف]

﴿ كَبُرَتْ ﴾ أى : عَظُمَتْ وتناهتْ فى الإثم ؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرتْ أنْ تخرجَ هذه الكلمة من أفواههم .

﴿ كَلِمَةً ﴾ الكلمة قول مُفْرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو فى ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطلَق ويُراد بها الكلام ، فالآية عَبَّرتْ عن قولهم ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ④ ﴾ [الكهف] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ⑨⑨ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. ①⓪⓪ ﴾ [المؤمنون] فسمَّى قولهم هذا (كلمة) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. ⑥④ ﴾ [آل عمران] فسمَّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ⑤ ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الكلمة كَبُرت لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتموها فى نفوسهم ولم يجهروا بها واستعظموا أن تخرجَ منهم لكانوا فى عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوْا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، نتعاظم أن نقولها ـ أى :

لا نقدر على النطق بها فقال ﷺ : « ذاك صريح الإيمان »[1] .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القُبْح ، فالأفكار والخواطر مهما بلغتْ من السوء وكتمها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكُنْ .

ثم يقول تعالى : ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا .. ۝﴾ [الكهف] أى : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألاَّ يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أنْ يتكلم يُدير الكلام على ذهْنه ويَعْرضه على تفكيره ، فتأتى النسبة في ذهْنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين تقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال فى خاطرك اجتهاد محمد ، وهذه تُسمَّى نسبة ذهْنية ، فإنْ قلتَ : محمد مجتهد أصبحتْ نسبة كلامية ، فإنْ وُجد شَخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحتْ نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق . فإنْ كانت النسبة الكلامية لا واقعَ لها كانْ لا يوجد شخص اسمه محمد أو وُجد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبرى الذى يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائى الذى لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قُلْت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث فى المستقبل ؛ لذلك لا يُوصَف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٢) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وفى رواية « تلك محض الإيمان » قال النووى فى شرحه لمسلم (٥١٢/١) : « إن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك » .